قافلة الزيت

صفر ١٣٩٢ - مارس/ابريل ١٩٧٢

الدرعية قلعة الإمجاد

أحد القصور الشامخة في حي الطريف بالدرعية تتحدى عاديات الزمن .

على بُعْدِ عشْرِين كيلو متراً إلى الشمالِ الغربيِّ من حيِّ البَطْحاءِ في قلبِ الرِّياضِ، عاصمةِ المملكةِ العربيَّةِ السعوديَّة، تقعُ مدينةٌ سجَّلَ لها التاريخُ صفحاتٍ رائعةً، فمنها جلجلتْ صيحةُ الحقِّ، وفي أرضِها نمتْ وترعرعتْ بذورُ توحيدِ الجزيرةِ العربيَّة، بعدَ أنْ كانتْ نهباً للمِحَنِ والأهواءِ، ومسرحاً لعواصفِ الجهلِ والضلالِ، إلى أنْ قيَّضَ اللهُ رجالاً انطلقوا من هذهِ المدينةِ ليبدِّدوا ظلامَ الجهلِ، ويعيدوا إلى الدِّينِ الإسلاميِّ الحنيفِ تعاليمَهُ الصحيحة . . تلكَ هي مدينةُ الدِّرعيَّة .

ما ان هبطت بنا الطائرة في مطار الرياض حتى استقبلتنا نسائم صبا نجد الباردة المنعشة ، المضمخة بشذى الخزامى والأقحوان ، تبعث فينا النشاط ، فالوقت ربيع مشرق . ولما أعربنا عن رغبتنا في زيارة مدينة الدرعية قال لنا سائق السيارة : اذن أنتم اما أن تكونوا طلاب متعة أو عشاق آثار . ولما استزدناه ايضاحا ، قال : الدرعية بلد يجد فيه الزائر بساتين النخيل الوارفة الظلال ، والهواء العليل ، والماء النمير ، وما لذ وطاب من الثمار ، وفيها يجد الزائر من ناحية أخرى الاطلال التي تقف شاهدا على ما بلغته هذه المدينة من رفعة وازدهار . عندها قلنا له : نحن طلاب الأمرين معا .

وسلك بنا السائق « شارع الدرعية » ذا الاتجاهين ، وهو من أجمل شوارع الرياض ، ويفضي الى طريق معبد يخترق هضبة نجد الشمالية مارا بمدن وقرى عديدة منها ، صَلْبوخ وبُنْبان والمجْمَعَة والزُّلْفي الى أن ينتهي بمدينة بريدة . وما هي الا دقائق معدودة حتى لمحنا لوحة على يمين الطريق كتب عليها « الى الدرعية » ، فانحرفت بنا السيارة الى اليسار على طريق فرعي وأخذت تنحدر تدريجيا حتى وجدنا أنفسنا في قلب الدرعية في أقل من خمس دقائق .

واسطة العقد في وادي حنيفة

يعتبر « وادي حنيفة » الذي يحتضن الدرعية بين ضفتيه من أهم أودية جزيرة العرب وأخصبها . وقد كان في الماضي من أكثر الأودية سكانا وعمرانا ، تنتشر فيه القرى والمزارع كالعقد المنظوم ، وتكاد تكون الدرعية التي نحن بصددها واسطة هذا العقد . وكان هذا الوادي يعرف قديما بوادي « العِرْض » أو عِرْض بني حنيفة ، شأن كل واد فيه قرى ومياه يطلق العرب عليه مثل هذا الاسم . وقد استوطنت هذا الوادي قبيلة حنيفة ، وهي من أقوى القبائل العربية شوكة وأبعدها صيتا وأكثرها عددا ، اتخذت من جبل العارض « طُوَيْق » حصنا منيعا يقيها غارات القبائل الأخرى . فهذا شاعرهم موسى بن جابر الحنفي يدلل على ما بلغه قومه من شجاعة وقوة ومحافظة على الديار ، فيقول :

وجدنا أبانا كان حَلَّ ببلدة ... سُوى بين قَيْسٍ قيسِ عَيْلان والفِزْر
فما نأت عنا العشيرة كلها ... أقمنا وحالفنا السيوف على الدهر
فما اسْلَمَتْنا بعدُ في يوم وقفةٍ ... ولا نحن أغمدنا السيوف على وتْر

تتدفق مياه وادي حنيفة من مرتفعات جبال « الخُمْرة » في سلسلة جبال طويق ، وينحدر مجراه نحو الجهة الجنوبية الشرقية الى أن يفيض في روضة السهباء القريبة من « حرض » في أسفل منطقة الخرج حيث يقوم مشروع الفيصل النموذجي لتوطين البادية . ويقال ان هذا الوادي كان يصب قديما في الخليج العربي الا أن الجفاف ورمال الدهناء المتحركة حالت مع الزمن دون ذلك . وعندما تهطل الأمطار ، تجتاحه سيول عارمة يصل ارتفاعها في بعض السنين الى عشرة أمتار ، فتقتلع الأشجار وتقوض المنازل وتتلف المزروعات ، ولهذا الوادي المرع روافد عديدة تغذيه بالمياه وتلقي فيه ما تجرفه في طريقها من طمي . ولذا كان من أخصب البقاع وأعمرها في قلب الجزيرة العربية . فهذا الأعشى ميمون بن قيس بن جندل من بلدة منفوحة باحدى قرى الوادي يقول :

ألم تر أن العِرْض أصبح بطنه ... نخيلا وزرعا نابتا ، وفُصافِصا
وذا شُرُفاتٍ يقصِرُ الطيرُ دونه ... ترى للحمام الورق فيه قرامصا (١)

وهذا يحيى بن طالب الحنفي ، شاعر آخر أنجبه هذا الوادي ، شاءت الظروف أن تبعده عن الرياض الغناء وملاعب الصبا ، فيحن اليها حنين المدنف الى هواه ، فيقول :

يهيج علي الشوق من كان مصعدا ... ويرتاح قلبي ان تهب جنوب
فيا رب سلِّ الهم عني فانني ... مع الهم محزون الفؤاد غريب
ولست أرى عيشا يطيب مع النوى ... ولكنه بالعِرْض كان يطيب

واذا كان وادي العِرْض قد طبقت شهرته الآفاق فيما مضى ، وتغنى به فحول الشعراء أمثال الأعشى ، وذو الرمّة ، والفرزدق وغيرهم ، نجده اليوم بفضل المشاريع الحيوية من اقامة سدود الى حفر آبار عميقة يعود أشد مما كان عليه حركة وعمرانا وازدهارا . وهي مظاهر من التقدم السريع الذي يجتاح الوادي من أعلاه الى أسفله ، تنعكس في آثار ابن الدرعية الشاعر المبدع والباحث المدقق الشيخ عبدالله بن خميس .

تسميتها وظهورها

لا شك في أن الطبيعة قد أغدقت على موقع الدرعية بسخاء ، فمن واد فسيح تنتشر على شفيريه المرابع الخضر والمزارع اليانعة تتخللها ربوات صخرية تطل على الوادي ببساتينه الممرعة وقراه المتصلة ومياهه الموسمية المتدفقة ، الى هضاب مستوية تحف بالوادي لا تفتأ أن تلبس حلة سندسية اذا ما جادها الغيث فتأخذ زخرفها من أزهار الاقحوان والشيح والقيصوم ، وفيها تسرح الانعام وتمرح . فلا غرو اذن أن تجتذب هذه البقعة الخصبة الكثيرين يعمرونها وينعمون بخيراتها ، سيما وان ربوعها غنية بالماء والخضراء ، ويصور الشاعر عبد الله بن خميس ذاك البهاء أجمل تصوير عندما يقول :

سقتها الغوادي كم بها من مرابع ... يعطر أنفاس النعامى عبيرها
من الشيح والقيصوم والبان نشرها ... وما حاكه ودق السماء غميرها
اذا داعبتها السحب أوجسها الصبا ... تأرج مغناها وراق غديرها
تعيث بحبات القلوب ظباؤها ... وتفعل ما لا يفعل السحر حورها

ويصف أحد الشعراء الشعبيين القدامى موقع الدرعية الجميل بقوله :

يا ديرة بالعرْض ماها قَراح ... يا ما بها من مِدْمج الساق ميّاح
قِبْليها (خاشِر) وذيك اللّيّاح ... وشْرقيّها بالوصف (رجْم ابن طِلْفاح) ٢

وعن نشوء الدرعية يحدثنا بعض من أرخوا لنجد وسجّلوا احداثها في القرون الأربعة الأخيرة ، أمثال الشيخ محمد بن عمر الفاخري ، والشيخ ابراهيم بن صالح بن عيسى ، والشيخ عثمان بن بشر وغيرهم : « في عام ٨٥٠هـ قدم مانع بن ربيعة المريدي ، الجد الثاني عشر للمغفور له الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ، من بلدته القديمة المعروفة بالدرعية ، من نواحي القطيف ، ومعه ولده ربيعة ، على « ابن درع » ، رئيس الدروع أهل وادي حنيفة وصاحب حَجْر والجِزْعة (الرياض الآن) ، وكانت بينهم صلة قرابة ، لأن كلا منهما ينتسب الى حنيفة ، فأعطاه « ابن درع » المليْبيد وغُصَيْبة ، القريتين الواقعتين في أعلى الدرعية ، فعمر ذلك المكان هو وذريته ، وأطلق عليه اسم « الدرعية » تيمنا باسم بلدته القديمة التي تقع على بعد نحو ثلاثين كيلومترا الى الجنوب الغربي من بقيق ، احدى مناطق العمل الرئيسية التابعة لشركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) ، وقد كان فيها شجيرات نخيل وبئر ماء يرتادها البدو القاطنون في تلك الناحية » .

---

(١) جمع قرموص وهو العش . (٢) يطلق عليه الآن « برج سعود » ويبعد نحو ٤ كيلومترات عن الدرعية من الناحية الشمالية الغربية .

تمتد بساتين النخيل اليانعة على طول عشرة كيلومترات بالدرعية .

أما الشاعر المؤرخ محمد الفهد العيسى فيرى أن بلدة الدرعية ترجع الى عهود أقدم من ذلك بكثير . فبعد التحليل المقارن والدراسة العميقة يرى أن بلدة الدرعية كان يطلق عليها قديما اسم « غَبْراء » التي عرفت فيما بعد باسم « العودة » ثم « عودة الدرعية » ثم « الدرعية » . و « الغبراء » تعرف اليوم باسم « غُبَيْراء » بالتصغير ، وهو شعب يرفد وادي حنيفة على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات الى الجنوب الغربي من قلب الدرعية الحديثة .

وجاء في « معجم البلدان » ، لياقوت الحموي : ان « الغبراء » هي الأرض الحمراء ، وهي أيضا من قرى اليمامة بها بنو الحارث ابن مسلمة بن عبيد ، ولم تدخل في صلح خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، أيام مسيلمة الكذاب .

وقال أبو محمد الأسود : الغبراء أرض لبني امرىء القيس من أرض اليمامة ، واستشهد بقول قيس بن يزيد السعدي :

ألا أبلغ بني الحران ان قد حويتم بغبراء نهبا فيه صماء مؤيد
ألم يك بالسكن الذي صفت ضلة وفي الحي عنهم بالزعيقاء مقعد

ولا يستبعد أبدا أن تكون الدرعية من قرى وادي حنيفة الدارسة خلافا لاسمها المستحدث بدليل أن هذه المنطقة بالذات كانت في عصور ما قبل الاسلام تزهو بقصورها وحصونها ، كذات النُّسوع وَبتيل حَجْر (٣) ، وشَموس ، ومُعْتِق وفي بعض الروايات مُعْنِق ، في ذلك يقول الشاعر :

أبت شرفات من شموس ومعنق لدى القصر منا أن تضام وتُضْهَدا

فذلكة تاريخية

لا بد لنا ونحن نستعرض تاريخ مدينة الدرعية والأحداث التي مرّت بها من أن نعود الى عهود سحيقة لنلم بالأقوام التي قطنت في هذه المنطقة والتي عرفت منذ القدم باسم « اليمامة » ، نسبة الى اليمامة بنت سهم ابن طسم « المشهورة » بزرقاء اليمامة » لزرقة عينيها ، وكانت على درجة كبيرة من حدة البصر حتى غدت مضرب المثل . ويشمل اقليم اليمامة في الوقت الحاضر العارض وسدير والمِحْمَل والشَّعيب والوشم والخرج والحوطة والحريق والافلاج . وكان هذا الاقليم يضيق ويتسع تبعا لمقتضيات ادارية تفرضها الدول المتعاقبة .

تشير المصادر التاريخية الى أن قبيلتي طسم وجديس ، وهما من القبائل العربية البائدة ، عاشتا متجاورتين على ضفاف وادي العِرْض ووادي الوَتْر (٤) من اقليم اليمامة . وكانت السيادة لطسم التي اشتهر عنها انها أمة متحضرة فجرت العيون وشيدت الحصون والقصور . وتورد تلك المصادر ، على علاتها ، عن سبب فناء تينك القبيلتين شيئا هو أقرب الى الأساطير منه الى الحقائق التاريخية المجردة . فقد آل حكم طسم الى الملك « عمليق » الذي فرض سيطرته على جديس ثم طغى وتجبر ، وبلغ به التمادي في الظلم والطغيان أن أمر ألا تزف بكر من جديس الى بعلها حتى تدخل عليه . فكان ان أخذت الأسود بن غفار ، سيد جديس ، الحمية اثر زواج أخته غفيرة التي حملت الى « عمليق » ليلة عرسها فافترعها وخرجت من عنده شاقة ثوبها وهي ترتجز :

لا أحد أذل من جديس أهكذا يفعل بالعروس ؟

وتمضي تحرض قومها على عمليق فتقول :

أيجمل تمشي في الدماء فتاتكم صبيحة زفت في العشاء الى بعل
فان أنتم لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تغبُّ من الكحل
فلو اننا كنا رجالا وكنتم نساء لكنا لا نقر على الذل
فموتوا كراما أو أميتوا عدوكم بحرب تُلَظَّى كالضرام من الجزل

ولما كان أهل « جديس » أضعف من أهل طسم ، وأقل عددا ، عمد زعيمهم الى الحيلة بأن صنع طعاما دعا اليه « عمليق » وحاشيته بعد أن أمر رجاله بأن يدفنوا سيوفهم في الرمال مشهورة فلما التأم شمل « عمليق » حول الوليمة ، وثب « الأسود بن غفار » على عمليق فقتله ، ثم أعمل رجاله السيوف في رقاب رجال « طسم » حتى أبادوهم الا واحدا منهم

(٣) بتيل وجمعها بتل ، هن مربع من طين مثل الصومعة ، مستطيل في السماء ، منها ما يبلغ طوله خمسمائة ذراع .

(٤) يعرف الآن باسم البطحاء ويخترق مدينة الرياض ويصب في وادي حنيفة .

المسجد الجامع ، وقد بني على أنقاض مسجد شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب .

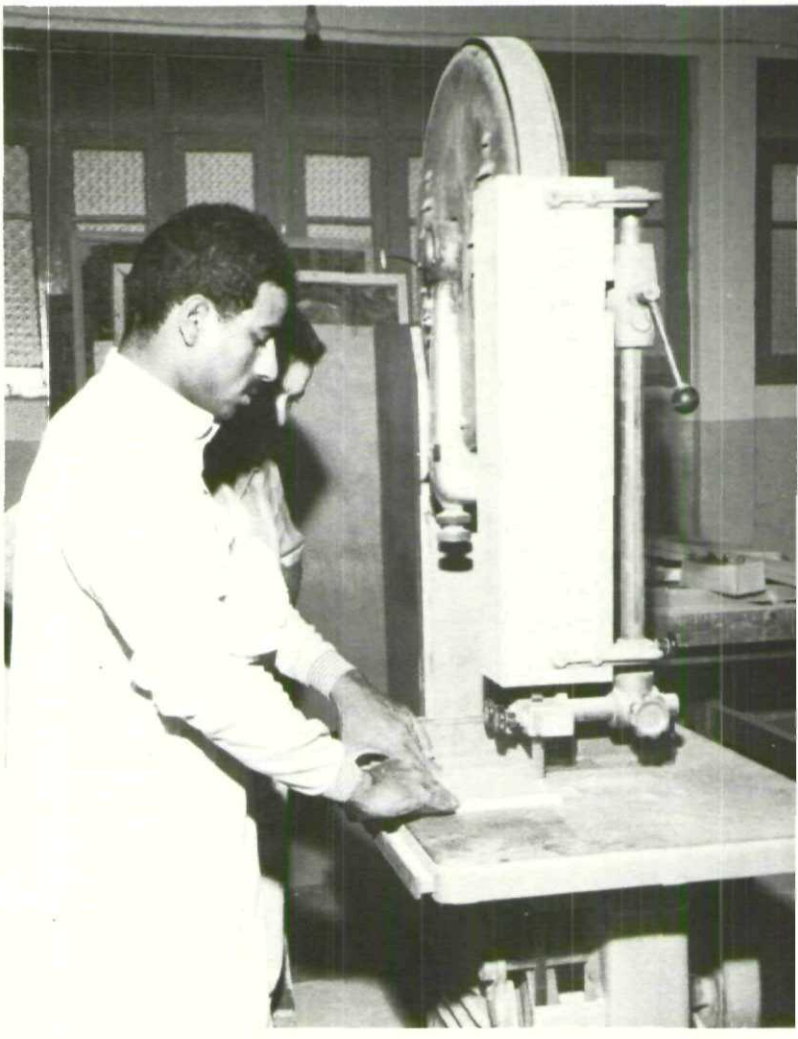

من أهداف مركز التنمية الاجتماعية بالدرعية تدريب الشباب على حرف مختلفة كالنجارة والحدادة والتصوير وغير ذلك .

فرّ الى « حسان بن أسعد أبي كرب » ، أحد ملوك اليمن ، واستنجد به ، فاغتنمها هذا فرصة سانحة لبسط نفوذه على هذا الاقليم . ورغم أن « زرقاء اليمامة » أنذرت قومها بقدوم تبّع اليمن الا أنهم كذبوها ، فصبّحهم حسان وقضى على طسم وجديس قضاء مبرما ، وخرب بلادهم وهدم قصورهم وحصونهم في بداية القرن الخامس الميلادي ، كما تثبت الكتابات الحميرية التي عثر عليها « عبد الله فيلبي » في جبل « ماسل الجمح » في العِرْض . وفي شرح وقائع هذه القصة يقول « أعشى قيس » من قصيدة طويلة مطلعها :

بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا ... واحتلت الغَمْر فالجُدّين فالفَرَعا

الى أن يقول :

كوني كمثل الذي اذ غاب رافدها ... أهدت له من بعيد نظرة جَزِعا
وقلبت مقلة ليست بمقرفة ... انسان عين ومأقا لم يكن قَمِعا
قالت أرى رجلا في كفه كتَف ... أو يخصف النعل لهفي أية صنِعا
فكذبوها بما قالت فصبحهم ... ذو آل حسان يزجي الموت والشرَعا
فاستنزلوا أهل جوّ في مساكنهم ... وهدموا شاخص البنيان فاتضعا

وعند تفرق القبائل العدنانية على نحو ما هو معروف في كتب التاريخ خرجت قبيلة عنزة بن أسد بن ربيعة تتبع مواقع القطر يتقدمها عبد العزي ابن عمرو العنزي حتى بلغ اليمامة ، فرأى بلادا واسعة ومخيلا وقصورا فطاب له المكان . وفيما بعد جاء بنو عمومتهم من بني حنيفة بزعامة « عبيد بن ثعلبة بن يربوع الحنفي » وجاوروهم ولم يلبثوا أن تغلبوا عليهم وأصبحت لهم السيادة وسمي وادي العرض باسمهم حتى الآن . ويرجّح بعض المؤرخين أن بني حنيفة استوطنوا هذه المنطقة حوالي القرن الرابع الميلادي، كما نزلتها قبائل عربية أخرى كقبيلة تميم، وقشير ، وباهلة ، وعقيل ، الى أن ظهر الاسلام . وقد كانت زعامة اليمامة آنذاك لهوذة ابن علي السحيمي الحنفي ، وهو أول معدّي لبس التاج وخوطب بعبارة « أبيت اللعن » . فأرسل اليه النبي، صلى الله عليه وسلم، سليطا بن عمرو العامري يدعوه الى الاسلام . فألف هوذة(٥) وفدا أرسله الى النبي فيهم مجّاعة بن مرارة والرجّال بن عنفوة يقول له ان جعل الأمر له من بعده أسلم وسار اليه ونصره والا قصد حربه ، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، لا ولا كرامة اللهم اكفنيه ، فمات بعد قليل .

ومن الذين يحمل لهم التاريخ ذكرى عطرة « ثمامة بن أثال »(٦) ، سيد بني حنيفة الذي تذكر الروايات عنه انه قصد مكة معتمرا وأهلها حينذاك مشركون ، فوافته خيل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأسرته، ثم جيء به الى رسول الله، صلى الله عليه وسلم ،وربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج اليه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وقال له : « ما عندك يا ثمامة ؟ » قال « عندي خير يا محمد ، ان تقتلني تقتل ذا دم ، وان تنعم تنعم على شاكر . » ولما تكرر من ثمامة هذا الجواب أطلقه النبي ، فأعلن اسلامه وذهب الى مكة معتمرا ، فقال له قائل من قريش : أصبأت يا ثمامة ؟ قال : لا ، ولكن أسلمت مع محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ولا والله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ، صلى الله عليه وسلم . ولما عاد الى اليمامة منع أهلها أن يحملوا الى مكة شيئا ، فكتب أهل مكة الى رسول الله ، صلى الى عليه وسلم ، : انك تأمر بصلة الرحم ، وانك قد قطعت أرحامنا ، قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع » . فكتب اليه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أن يعيد المياه الى مجاريها . واليمامة مشهورة

---

(٥) الجزء الأول من«تاريخ الكامل»لابن الأثير .

(٦) «البداية والنهاية في التاريخ»لابن كثير الجزء الخامس

يقوم الاخصائي الزراعي بعقد اجتماعات ارشادية الغرض منها توعية المزارعين وحثهم على اتباع أحدث الوسائل الزراعية .

بحنطتها وكانت تحمل الى الخلفاء ويطلق عليها بيضاء اليمامة . ويفخر أهل اليمامة بقولهم : « غلبنا أهل الأرض شرقها وغربها بخمس خصال : ليس في الدنيا أحسن ألوانا من نسائنا ، ولا أطيب طعاما من حنطتنا ، ولا أشد حلاوة من تمرنا ، ولا أطيب مضغة من لحمنا ، ولا أعذب من مائنا » .

ولما توفي النبي ، صلى الله عليه وسلم ، انقاد بنو حنيفة لمسيلمة ابن حبيب الكذاب ، لأن الاسلام لم يتمكن من نفوسهم . وكان مسيلمة قد وفد على النبي ،صلى الله عليه وسلم ، وادعى النبوة عقب عودته وقويت شوكته . والجدير بالذكر ان « ثمامة بن أثال » ثبت على اسلامه وخرج من اليمامة وانضم الى العلاء بن الحضرمي لقتال المرتدين من أهل البحرين . ولما بلغ أبا بكر ، رضي الله عنه ، ما آلت اليه الأمور في اليمامة سير لها جيشا بقيادة « عكرمة بن أبي جهل » فلم يحالفه الحظ ، وكان قد أرسل له أبو بكر مددا مع شرحبيل بن حسنة فلقي هذا ما لاقاه عكرمة . فما كان من أبي بكر الا أن أرسل خالداً بن الوليد الذي قدم الى اليمامة في السنة الحادية عشرة للهجرة بعد أن فرغ من القضاء على « طليحة الأسدي » في معركة « بزاخة » . ولما بلغ خالد بجيشه ثنية الأحيسي (٧) في أعلى الوادي ، خرج مسيلمة لبني حنيفة ونزل في عقرباء بجوار قرية الجبيلة على بعد ١٢ كيلومترا الى الشمال الغربي من الدرعية . وفي عقرباء وقعت معركة « حديقة الموت » ، وهي من أعنف المعارك ، وقد لجأ اليها مسيلمة فقتل فيها ، وسميت بهذا الاسم لكثرة من قتل فيها . وقد استشهد في وقعة « عقرباء » ألف ومئتا شهيد ، منهم زيد بن الخطاب ، أخو الخليفة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه . وفي ذلك قال ضرار بن الأزور :

ولو سئلت عنا جُنوب لأخبرت عشية سالت « عقربـاء » ومَلْهَم
وسال بفرع الواد حتى ترقرقت حجارته فيها من القوم بالدم
عشية لا تغني الرماح مكانها ولا النبل الا المشرفي المصمم
فان تبتغي الكفار غير مليمة جنوب فاني تابع الدين مسلم
أجاهد اذ كان الجهاد غنيمة ولله بالمرء المجـاهد أعلـم

وتم أخيرا الصلح ، ورجع خالد بن الوليد من اليمامة بعد أن ولّى عليها « سمرة بن عمرو العنبري » من تميم . ثم قدم وفد من بني حنيفة الى الخليفة أبي بكر ، رضي الله عنه ، لتقديم الولاء والطاعة ، وبذلك انضوت اليمامة تحت لواء الاسلام تذود عنه بقوة وايمان وأبلى أبناؤها بلاء حسنا في الفتوحات الاسلامية فيما بعد .

عَاصِمَةٌ وَمُنْطَلَقُ دَعْوَةٍ

في حين كانت الجزيرة العربية تغط في سبات عميق وفي حالة يرثى لها من التدهور والانحطاط ، برزت الدرعية في حوالي منتصف القرن الثاني عشر الهجري لتتبوأ مركزا مرموقا وكأنها على موعد مع التاريخ . ففي عام ١١٣٩هـ استقل الامام « محمد بن سعود بن مقرن بن مرخان » بولاية الدرعية(٨) ومعها غصيبة ، واتخذ منها عاصمة لملكها فازدهرت بالعمران ونشطت فيها الحركة التجارية . وقد نعمت بأسباب العزة والمجد عندما التجأ اليها المصلح الكبير والداعية المجدد الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» قادما من العُيَيْنة ، فاستقبله أميرها « محمد بن سعود » وعاهده على مناصرته ومؤازرته ونشر دعوته ، التي ترمي الى العودة الى الاسلام نقيا من البدع والترهات والضلالات . ومع أن الدعوة لاقت في بادىء الأمر مناوأة شديدة الا أنها لم تلبث أن انتشرت وامتد شعاعها خارج حدود الجزيرة العربية . والجدير بالذكر أن الدرعية أصبحت آنذاك منارة للعلم والدين عندما راح الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » ينظم حلقات الدرس في المسجد الجامع وفي منزله في حي البجيري ، فكثر تلاميذه ومريدوه من أبناء الدرعية والقرى المجاورة وحتى من المناطق الأخرى البعيدة ، وبذلك غدت الدرعية أول مركز ثقافي اسلامي ، لا في نجد وحدها بل في شبه جزيرة العرب . كما بلغت شأوا ملحوظا في طريق التقدم والازدهار ابان حكم أمراء آل سعود وعمها الخير والرفاه .

مَثَلٌ أعلى في الصُّمود

ان النجاح الذي حققته الدرعية لم يحظ برضى الدول المجاورة بل قابلته بعين السخط والغضب ، وخاصة الدولة العثمانية التي رأت في الدرعية درعا يحول دون تحقيق مطامعها وبسط نفوذها ، فأخذت تسعى

(٧) تعرف الآن باسم « الحَيْسِيَّة » . (٨) « عنوان المجد في تاريخ نجد » لابن بشر .

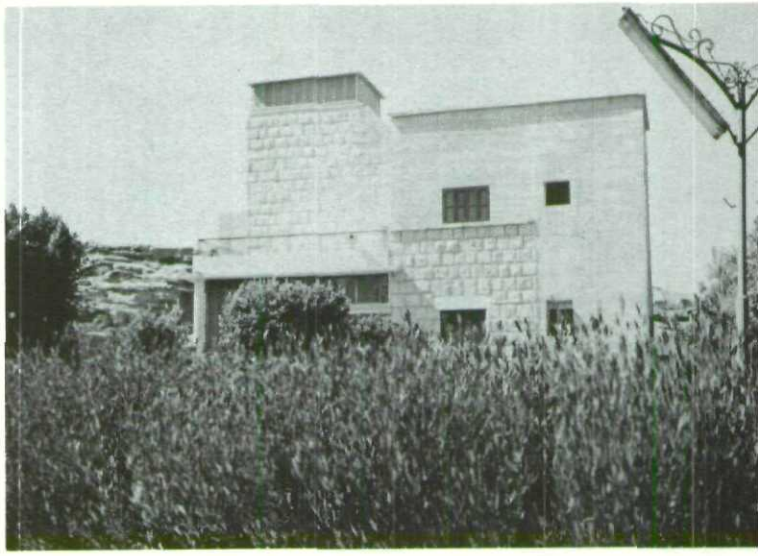

منزل حديث مبني بالحجارة المقصبة المقطوعة من جبال الدرعية .

جاهدة لوقفها عند حدها ، وأمرت ولاتها في كل من البصرة وبغداد ومكة ومصر وسورية لمحاربتها والقضاء عليها . ولعل والي مصر، محمد علي باشا، أخذ على عاتقه العبء الأكبر لتنفيذ مخططاتها الرامية الى الابقاء على نفوذها في قلب الجزيرة العربية . فأوفد أولا ولده « أحمد طوسون » بجيوش جرارة ، ولكن هذا لم يفلح في القضاء على رسالة الحق التي انبثقت من الدرعية . لذلك ندب ولده الثاني « ابراهيم باشا » لتلك المهمة وأمده بقوات كبيرة وعتاد ثقيل . فزحف هذا عام ١٢٣٣هـ حتى وصل الى مشارف الدرعية وركز مدافعه حولها وأخذ يمطرها بوابل من القذائف ويدك حصونها وأبراجها وأسوارها . وصمد أمراء آل سعود في الذود عن عرينهم ، واستبسل أهل الدرعية في الدفاع عن مدينتهم حتى نفدت ذخيرتهم وشحت مؤونتهم ، واستسلمت الدرعية بعد كفاح مرير وقتال عنيف . وقام ابراهيم باشا بتدمير الدرعية وتشتيت أهلها واحالتها الى خرائب وأطلال . ويصور الشاعر الشعبي « أبو نهية » ما آلت اليه الدرعية عام ١٢٣٣هـ أصدق تصوير في قصيدة نبطية طويلة نقتطف منها الأبيات التالية :

سهرت وكل العالمين هجيع ... بتغريد ورق بالغصون سجيع
ناديتهم يالورق بسّك من الغنا ... لعلك تبكي يا حمام فجيع
تبكي وليف لك وتلقى سواته ... ما نتب يا حمام سواتي وجيع
بعيد عن الأوطان في دار غربه ... أمسي وأصبح ما أشوف ربيع
ما أدري أبكي هم بالي أو ما جرى ... أو أبكي دهر لدي خديع
أو أبكي على ربع عفاف وأهل نقا ... ذِبْحوا بليّا شافع وشفيع
أبكي معازيبي بمصر تشتتوا ... فهد وسعد والعيال جميع
وأبكي العوجا(٩) ربينا بربعها ... صغار كبار نشتري فيها ونبيع
غدت مأوى جن تطارد بسوقها ... ما غير جدران كذا وسفيع
ما كن صار فيها للحكم منصى ... لا قصر بم الطريف رفيع
ولا شدت الركبان منها لغيرها ... ولا بركت فيها الطروش قطيع
ولا أسس فيها للعلم مدارس ... ولا مسجد من شمالها وسيع
ولا داج بأسواقها خرد المها ... من كل عذراء كالغزال تليع

(٩) هذا الاسم يطلق على الدرعية وهو شعار أهلها في الحرب والنخوة .

وها هي ذي اليوم بعد نحو قرن ونصف من الزمان تعود الى سابق عهدها من ازدهار زراعي وعمراني وعلمي واجتماعي. ولن يطول الوقت حتى تصبح الدرعية جزءا عزيزا من الرياض ، عاصمة البلاد ، التي أخذت يد العمران فيها تمتد الى الدرعية بشكل سريع . والجدير بالذكر أن مباني جامعة الرياض قد خصصت لها أرض واسعة على بعد أربعة كيلومترات شرقي الدعية . كما جرى مسح جميع الأراضي الواقعة بين مدينة الرياض والدرعية لتصبح في المستقبل القريب بقعة سكنية هادئة جميلة.

جولة في الدرعية وأطلالها

رغم الأرزاء والنكبات التي حلت بالدرعية في عهدها الماضي نجد أن أهلها يتمتعون بروح عالية من العزم والتصميم ، فقد عادوا اليها بعد طول تشتت ، وراحوا يبنون ويزرعون حتى عاد للدرعية رونقها وبهاؤها . وبدأت الحياة تدب فيها من جديد .

وتضم الدرعية أحياء قديمة وجديدة . فمن الأحياء القديمة ، الطريف والبجيري وبريكه والمريّح وسمحان والسريحة ومَلْوي والطوالع والظويهرة ، ومن الأحياء الجديدة الظهرة والروقية . ولعل حي « الظهرة » الذي يطل على الوادي من الجهة الشمالية أكثر الأحياء حركة ونشاطا لوجود السوق فيه من ناحية ، ووجود مركز التنمية ومركز التدريب والبحوث التطبيقية على ربوة في الجهة الشمالية منه ، من ناحية أخرى .

وتتبع الدرعية عدة قرى زراعية تقوم في الوادي وشعابه منها ، العِلْب والعودة والعمّارية وأبا الكُباش والمغَيْدر والوَصيل والمُلْقى .

وفي جولتنا بين أطلال الدرعية رافقنا أميرها سعادة الشيخ « محمد ابن عبد الرحمن الباهلي » ، وهو من الملمين بتاريخ هذه المنطقة وأحداثها الغابرة . وبدأنا جولتنا في حي البجيري المحاذي لمجرى وادي حنيفة من الجهة الشمالية ، وفيه شاهدنا المسجد الجامع الحديث الذي أقيم على أنقاض مسجد امام الدعوة الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » الذي بناه على مقربة من بيته . ثم قطعنا الوادي من المكان الذي سيجرى عليه انشاء جسر يربط بين البجيري والطريف ، سيما وان السيول العارمة في مواسم الأمطار تحول دون الانتقال من حي الى آخر . واتجهنا نحو حي الطريف المتاخم للوادي من الجهة الجنوبية والذي كان فيما مضى مقرا لسكنى أمراء آل سعود . ويقوم حي الطريف على مرتفعات صخرية شديدة الانحدار في بعض المواقع ، تمتد أمامها بساتين النخيل النضرة في الوادي . وأول ما يصافح أنظار الزائر في هذا الحي أطلال قصر الامام « عبد الله بن سعود » بمحلة « سلوى » ، ولا تزال جدرانه قائمة رغم عاديات الزمن . ويبلغ سمك الجدار الواحد منها حوالي متر ونصف المتر ، وقد شيدت أساساته من الحجارة المقصبة المقطوعة من جبال الدرعية الى علو مترين تقريبا ، أما بقية أجزاء البناء فقد جرى بناؤها من اللبن والطين . ويقوم في الركن الجنوبي من القصر برج سامق للمراقبة يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثين مترا . ويمتد من القصر طريق مدرج من الحجارة المطابقة يطلق عليه « درب فيصل » يفضي الى « الدريشة » وهي قلعة جاثمة على ربوة عالية تشرف على الوادي والهضاب المحيطة به . وحول « الدريشة » منبسط من الأرض يسمى « كوع الخيل » كانت تربط فيه الخيول . ومن هذه القلعة يستطيع الزائر أن يرى عددا كبيرة من الأبراج القائمة على ضفتي الوادي . وعلى مقربة من قصر « سلوى » ،

يقوم قصر آخر يدعى قصر« بيت المال»، وهو دائري الشكل ترتفع على أسواره بعض الشناذر (الأبراج) . وفي الجهة الغربية من القصر الكبير ، يشاهد المرء بقايا مسجد الطريف القديم .

الزراعة في الدرعية

يمتاز وادي حنيفة عامة بتربة رسوبية صالحة لزراعة أشجار الفاكهة والخضراوات على اختلاف أنواعها ، نظرا لما تلقيه روافده من مواد غرينية تزيد من خصوبته . ومن الأودية والشعاب التي تغذي هذا الوادي بالطمي في منطقة الدرعية هي صُغار ، وبُلَيْدة ، وشعيب الروم (قرى قصير) ، والحَريقة ، والخَسيف ، والعمّاريّة ، والملْقَى . وقد كانت الزراعة السائدة في الوادي في الماضي هي النخيل والبرسيم والدخن ، والقمح والشعير ، بيد أن الأهالي سرعان ما أخذوا يتجهون الى زراعة أشجار الفاكهة والخضراوات والبقول . فمن أشجار الفاكهة التي تكثر زراعتها في منطقة الدرعية : العنب ، والرمان ، والخوخ ، والجوافا ، والبشملة (أكيدينيا) ، والتين ، والمشمش ، والتفاح ، والموالح . أما الخضراوات فقد أصبحت تزرع على نطاق واسع لرواجها ، ومنها : الباذنجان والملفوف والقرنبيط والطماطم والحبْحُر (الفلفل) والخس والملوخية والباميا والقرع والكوسا وغيرها . وتعتمد الزراعة في الري ، على الآبار الارتوازية التي تحفر الى عمق يتراوح بين ٧٠ و ١٠٠ متر .

وفي حديث مع المرشد الزراعي ، محمد توفيق بدر ، حول النشاط الزراعي في المنطقة ، ذكر أن التوسع الزراعي في المنطقة يجري رأسيا نظرا لأن مساحة الأراضي الصالحة للزراعة محدودة . ولذا يلجأ الى تحسين المحاصيل التي تنتجها المنطقة باتباع الطرق الحديثة واستخدام الوسائل الفنية الكفيلة بزيادة الانتاج . ونظرا لأهمية هذه المنطقة بالنسبة للتوسع العمراني في الرياض وزيادة السكان بشكل مطرد ، فقد أولتها وزارة الزراعة عناية خاصة فأنشأت ثلاثة سدود بلغت تكاليفها زهاء عشرة ملايين ريال ، بغية المحافظة على منسوب المياه الجوفية وهذه السدود هي : سد وادي صُغار ، وسد غُبيْره ، وسد الحَريقة . وتقوم وزارة الزراعة حاليا بمسح كامل لتقدير مخزون المياه الجوفية . كما تقوم في الوقت الحاضر بدراسة مشروع يهدف الى بناء سد قرب « الثُلَيْمة » ، وحفر ثلاث آبار ارتوازية عميقة . وتجد محاصيل الدرعية سوقا استهلاكية كبيرة في الرياض وحتى في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية ، ولهذا يقبل المزارعون على استغلال أراضيهم استغلالا حسنا . ويسهم القسم الزراعي في مركز التنمية الاجتماعية بالدرعية اسهاما فعالا بارشاد المزارعين الى أفضل الأساليب الزراعية عن طريق اقامة الحقول الارشادية والمزارع النموذجية وتقديم المساعدات الفنية للمزارعين وما يحتاجونه من أشتال وآليات ومبيدات حشرية وأسمدة كيماوية .

وتموّن الدرعية مناطق كثيرة بتمورها الممتازة ، وخاصة العاصمة ، الرياض . ومن أهم أنواع التمور المعروفة في الدرعية هي : نبت السيف وهي من أجود أنواع التمور في المملكة ، والمنيف ، والسَّلَجة ، ونبوت الحمُر وأصلها من المدينة المنورة ، والخَصاب ، والذاوي ، والخُضْري ، والمِسْكاني ، والصُّقْعي ، والمكتومي ، والمقْفَزي وغيرها . والجدير بالذكر أن المزارعين بالدرعية يخرفون (يجنون) الرطب في جرادل زنة الواحد منها حوالي ٣ كيلوغرامات تباع بأسعار مختلفة تبعا لنوع الرطب . ومما يقلق المزارعين حاليا عدم توفر الماء لبعض بساتين النخيل بسبب موجة الجفاف التي أصابت المنطقة . ويعبر عن ذلك ابن الدرعية البار الشاعر « عبد الله ابن خميس » بقصيدة شعبية يقول فيها :

سلام يا دار تربع في مفيض الوصيل نخوة بني مقرن هل العادات تعزالها
يا دار قولي وين صاف الماء وهدْب النخيل اللي تعطّف شرّد الغزلان بظلالها
وين الحدايق ناعمات والمصيف الجميل وين الحمايم ساجعات طيب فالها
حلفت بالله يا بلادي ما نبي بك بديل لو كان دار يجتني الياقوت بسهالها
يالله ياللي لا عطى مهوب مده قليل طالبك يا منزل بلاها تلطّف بحالها
عساك يا وادي حنيفة كل يوم تسيل تحيي بلاد جدد الاسلام بقذالها

وقد بادرت وزارة الزراعة ، كما سبق وان أشرنا الى ذلك ، لعمل كل ما في وسعها لتوفير المياه لهذه المنطقة لتبقى دائما المصيف الجميل والروضة النضرة التي يقصدها أهالي الرياض في مواسم العطل والأعياد لينعموا بظلالها الوارفة ومياهها العذبة ورطبها الجنية وهوائها العليل .

التلاميذ في أحد فصول المدرسة المتوسطة بالدرعية يرقبون باهتمام احدى التجارب التي يجريها أمامهم مدرس العلوم .

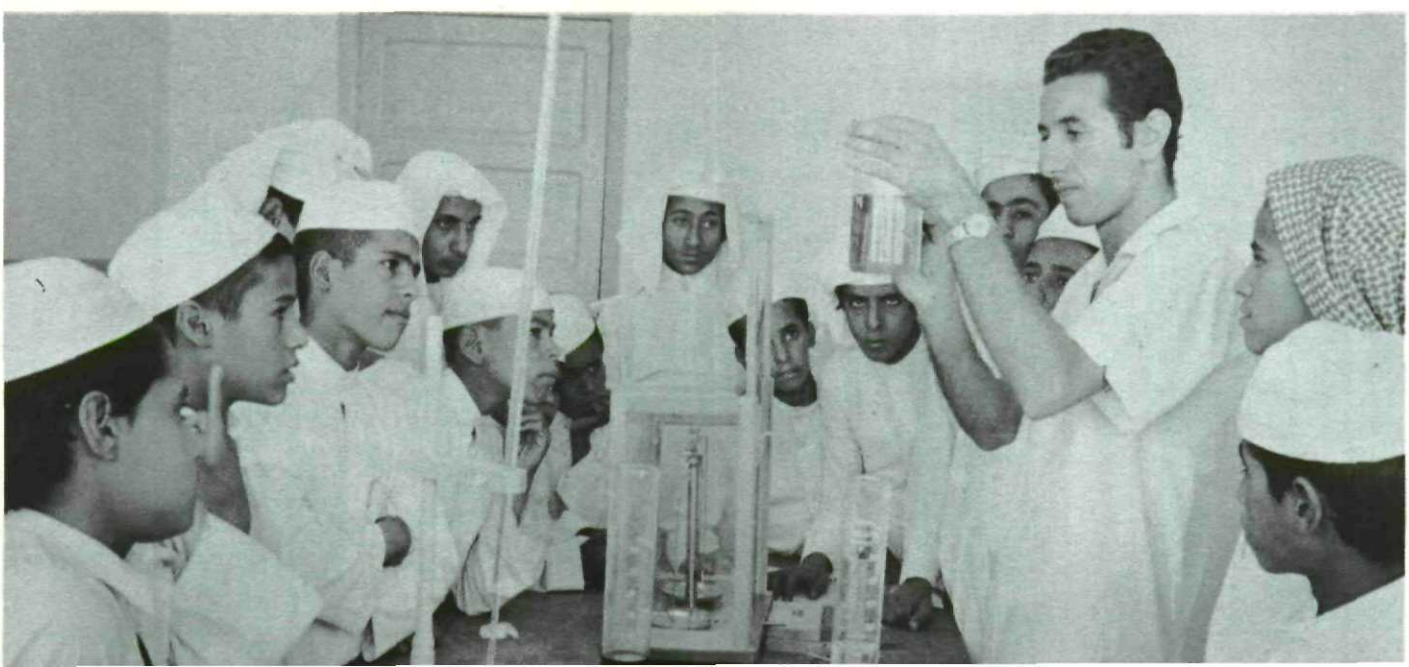

التعليم والحركة الأدبية

مدينة الدرعية التي شعّ منها ضياء النهضة الاسلامية ، كانت في القرن الثاني عشر الهجري موئلا للعلم وينبوعا ثرا ينهل منه طلاب العلم الفقه والحديث والتفسير وعلوم اللغة على يد الامام المجدد الشيخ « محمد ابن عبد الوهاب » الذي خلف من بعده مؤلفات قيمة منها : كتاب التوحيد ، وكتاب الكبائر ، ومختصر الانصاف في الفقه ، والسيرة المطولة وكثير غيرها . والجدير بالذكر انه في عهد الامام « عبد العزيز ابن محمد بن سعود » الذي تسلم مقاليد الحكم في الدرعية عام ١١٧٩هـ نشطت حركة التعليم بفضل تشجيعه للدراسة ، مما جعل الدرعية تكتظ بالوافدين اليها من مختلف أنحاء الجزيرة العربية طلبا للعلم . وفي الدرعية وقراها اليوم مدارس ابتدائية عديدة للبنين والبنات وأخرى متوسطة . ويواصل خريجو المدرسة المتوسطة تعليمهم في مدارس الرياض وكلياتها ومعاهدها بحكم قرب الدرعية منها . وبها أيضا مدرستان لتعليم الفتيات والسيدات اللواتي فاتتهن فرصة التعليم في صغرهن ، مبادىء القراءة والكتابة والتدبير المنزلي بغية رفع مستوى الأسرة اجتماعيا وثقافيا ..

ويتجلى نشاط الحركة التعليمية في الدرعية وشغف أهلها بالعلم في كثرة المثقفين من أبنائها الذين يشغلون مناصب مرموقة في وظائف الدولة . كما ان من بينهم من يحملون لواء النهضة الأدبية في المملكة عاليا ، ولهم في هذا المضمار أعمال أدبية قيمة ، منهم الشاعر المؤرخ الشيخ « عبد الله بن خميس » صاحب المؤلفات العديدة . وابن خميس هو ابن الطبيعة كلما دلف اليها وجد في كنفها غذاء الروح والعقل فيجود بأعذب الألحان :

من لصب ضاعف النأي هيامه ... مدنف حن الى حَجْر اليمامه
كلما رق له ريح الصبا ... عاج توّا علّه يروي أوامه
واذا ما أنجدت سارية ... حمل البرق مناه وسلامه

تلك الطبيعة المعطاء أنجبت عددا من الشعراء الشعبيين منهم على سبيل المثال لا الحصر ، ناصر العريني ، وأبو نهية ، وعبد الرحمن الصفيان ، وسليمان بن صالح العثيم ، ومبارك بن سليمان بن بريك وغيرهم . كما أننا نجد بين شباب الدرعية من يتمتعون بمواهب فنية رفيعة تبشر بمستقبل لامع أمثال : ابراهيم ناصر الفصام ، وبيشان حمد بيشان ، وغيرهما ممن لهم لوحات زيتية رائعة استمدوا موضوعاتها من البيئة وتاريخ الدرعية المشرق وآثارها الجليلة .

مركز التنمية الاجتماعية

على ربوة تطل على مدينة الدرعية بواديها الممرع يرتفع صرح يعتبر من أبرز معالمها الحديثة ، هو مركز التنمية الاجتماعية الذي أنشأته وزارة العمل والشؤون الاجتماعية عام ١٣٨٠هـ كأول مركز للتنمية في المملكة العربية السعودية . وهو يشتمل على أربعة قطاعات هي : القطاع الاجتماعي ، والقطاع الزراعي ، والقطاع الثقافي ، والقطاع الصحي . وتمتد خدمات المركز علاوة على الدرعية الى قرى العلب والعودة وعرقه والعمارية والملقى والمغيد والوصيل . وتتضافر جهود هذه القطاعات الأربع في سبيل النهوض بتلك القرى ورفع مستوى سكانها الاجتماعي والثقافي .

ومن بين المشاريع الأخرى التي يتبناها المركز في القطاع الاجتماعي مشروع تحسين مستوى الأسرة الاقتصادي ، والأمومة والطفولة ، وفرحة اليتيم ، وتحسين المساكن ، والمعسكر الصيفي . وفي القطاع الزراعي يقوم الأخصائيون بعقد اجتماعات ارشادية يحضرها أصحاب المزارع لتدريبهم على مختلف العمليات الزراعية ، وحثهم على تبني الأساليب الحديثة لتحسين نوعيات محاصيلهم من الخضراوات والفواكه ، كما يشرفون على رش المزارع بالمبيدات الحشرية وتوزيع الأسمدة الكيماوية والأشتال على المزارعين . ويقوم القسم الصحي في المركز بالبحوث الصحية ،

الآليات الحديثة أخذت تظهر في النشاط الزراعي . وهذه حصادة تستخدم في احدى المزارع في الدرعية .

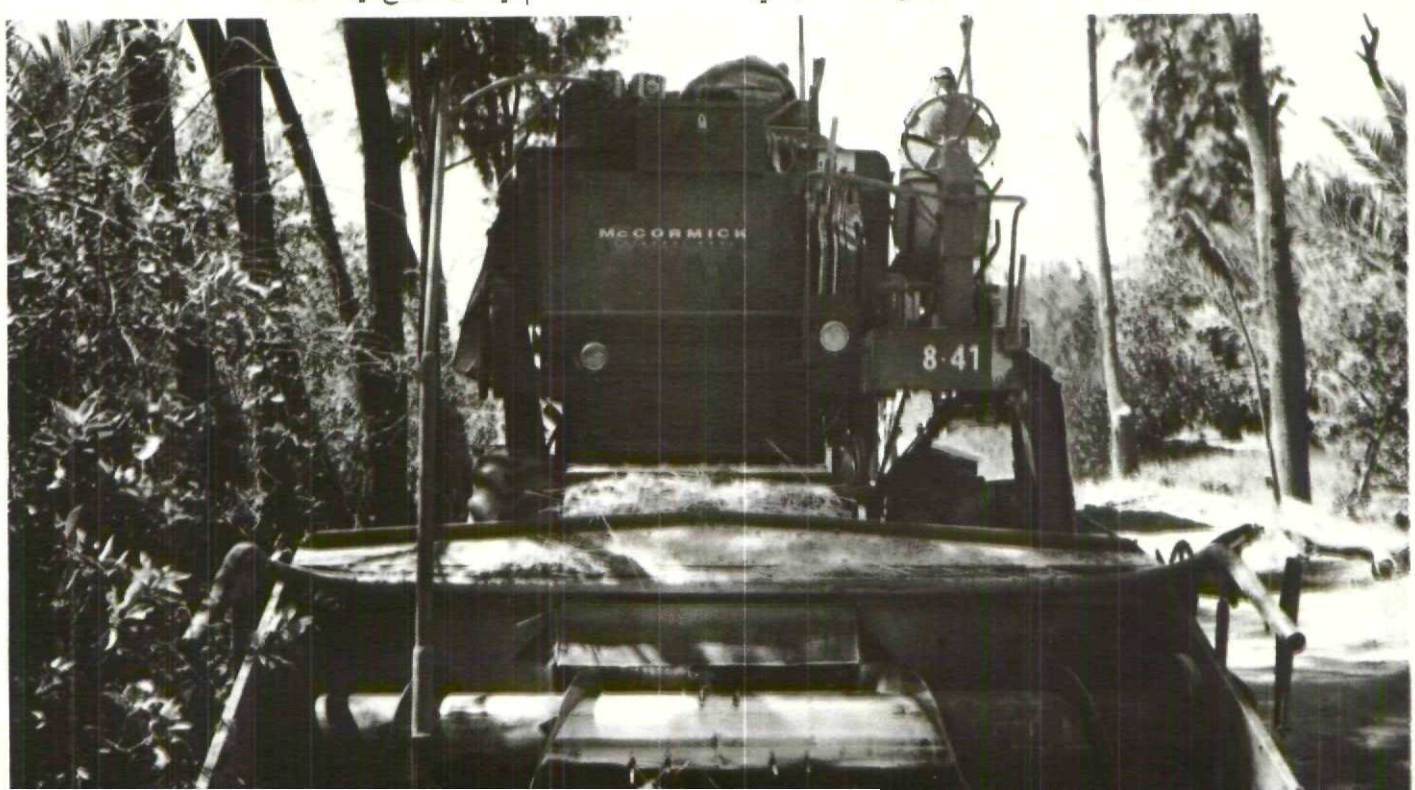

الرطب الجني يخرف (يجمع) في جرادل صغيرة ويباع في أسواق الرياض .

ومكافحة الحشرات الناقلة للأمراض ، والارشاد الصحي ، وتنظيم الزيارات للمنازل والمدارس لاتخاذ الاجراءات الوقائية ضد الأمراض ، واصدار النشرات التثقيفية الصحية ، وإلقاء المحاضرات . وفي المجال الثقافي يقوم المختصون لدى المركز بنشاطات تستهدف محو الأمية عن طريق الدراسة الليلية لمن فاتهم ركب التعلم ، وتيسير كل ما من شأنه أن يساعد الدارس على مواصلة دراسته . ويشرف القسم الثقافي على مكتبة المركز التي تضم عددا كبيرا من الكتب التي تبحث في شتى المواضيع . وهذه المكتبة تمد المدارس الواقعة في نطاق خدمات المركز ببعض الكتب المختارة التي تتناسب ومستوى الطلاب الفكري .

مركز التدريب والبحوث التطبيقية في التنمية الاجتماعية

تأسس هذا المركز منذ عامين تقريبا بالتعاون بين حكومة المملكة العربية السعودية والصندوق الخاص التابع لهيئة الأمم المتحدة ضمن البرنامج الانمائي للأمم المتحدة ، بموجب اتفاقية مدتها أربع سنوات . والغرض الأساسي من هذا المشروع الضخم هو تدريب الأخصائيين العاملين في التنمية الاجتماعية اللازمين لشغل الوظائف في مراكز التنمية المنتشرة في أرجاء المملكة العربية السعودية واجراء البحوث في الطرق والأساليب الفعالة للنهوض بمسؤولية المجتمع المحلي وتشجيعه على العمل في هذا الاتجاه ، حتى والعمل على تطوير المجتمع والانماء الاقتصادي في اطار المفاهيم الاسلامية والتقاليد العربية الأصيلة . والجدير بالذكر أنه يوجد في المملكة الآن أحد عشر مركزا للتنمية الاجتماعية وستة مراكز للخدمة الاجتماعية .

وفي حديث خاص مع الدكتور « فاروق عبد الرحمن مراد » ، مدير عام مركز التدريب والبحوث التطبيقية ، قال : « يتوقف انشاء مراكز جديدة للتنمية في أنحاء المملكة الى حد كبير على توفر الكفاءات المطلوبة لادارتها والاشراف عليها ، وهذا ما نسعى الى تحقيقه في السنوات القليلة القادمة . ويهمنا في الوقت الحاضر أن نعمل بجد على تطوير مركز التنمية الاجتماعية بالدرعية ورفع مستواه الحالي ليعمل كمعهد للتدريب في التنمية الاجتماعية للموظفين على مستوى المسؤولين ولموظفي الميدان والأخصائيين والفنيين والمسؤولين المحليين . وسيقوم المركز بتقديم المشورة والمساعدة لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية والوزارات الأخرى من خلال الدراسات والبحوث التي يجريها » .

وتستدعي خطة العمل استقدام خبراء ومستشارين دوليين في مجالات متعددة منها : التدريب والأعمال الميدانية والتقييم والبحوث التطبيقية والارشاد الزراعي والاقتصاد والاسكان الريفي ، والصناعات الريفية والحرف اليدوية . كما يتم اختيار نظراء سعوديين للخبراء الأجانب من ذوي الكفاءات العالية يجري تدريبهم ليتسنى لهم القيام بدور الخبراء في المجالات المذكورة آنفا . هذا وتعقد دورات تدريبية خاصة لتوفير الأخصائيين الاجتماعيين والفنيين مدتها تسعة شهور يتم اختيار الملتحقين بها من حملة شهادة التوجيهية أو ما يعادلها من العاملين في حقل التنمية الاجتماعية أو من الموظفين في أي وزارة من الوزارات المعنية بالتنمية الاجتماعية . وتعقد أيضا دورات تدريبية قصيرة متخصصة ذات برامج مركزة وسريعة يلتحق بها أشخاص يقع على كاهلهم الاشراف المباشر على أعمال التنمية كرؤساء في مراكز التنمية . ومن المقرر أن تعقد خمس دورات قصيرة خلال هذا العام مدة كل منها ٢٥ يوما وسيشترك في كل منها عشرون ملتحقا .

هذا ، ويعتبر مركز التدريب والبحوث التطبيقية في التنمية الاجتماعية الأول من نوعه في الشرق الأوسط .

الحياة الاجتماعية في الدرعية

يتصف أبناء الدرعية بالجد والمثابرة والتعلق بالأرض حتى لنجد أن الأسر التي نزحت الى بعض مدن المملكة وقراها بحكم ما أصاب الدرعية من كوارث في الماضي أو بحكم أعمالهم ووظائفهم يعاودها الحنين الى مرابعها الخضر ورياضها النضرة . ومن المظاهر الملموسة التي تنم عن حبهم لأرضهم الخيرة انهم في أيام العطل والمناسبات ينتشرون زرافات في البساتين النضرة في جلسات لطيفة مؤنسة ، يرتشفون خلالها القهوة العربية ويتناشدون الأشعار الشعبية التي لهم بها ولع شديد . هذا وينتمي عدد كبير من شباب الدرعية الناهض الى « نادي الدرعية الريفي » الذي أسهم في تأسيسه عام ١٣٨٩هـ القسم الاجتماعي التابع لمركز التنمية . ويشارك أعضاء النادي باقامة حفلات السمر والرقصات الشعبية والندوات الأدبية والفنية . ومن عادات أبناء الدرعية وتقاليدهم الطيبة أنهم في أيام المناسبات يبسطون الموائد في الأسواق ليجد القريب والبعيد ما لذ وطاب من ألوان الطعام . ومن أشهر الأكلات المعروفة عندهم « القرصان » ، « والمطازيز » ، « والحنيني » الذي يتألف من دقيق البر والتمر والذوب (السمن البقري) ، والجريش هو عبارة عن البر المكسر الذي يمزج بالسمن واللبن .

ويشتهر أبناء الدرعية بشكل خاص برقصة العرضة النجدية ، فلهم فيها باع طويل حتى أصبح لهم في المهرجانات الشعبية التي تقام في الرياض مكان مرموق ، فاذا ما اشتد الحماس على دقات الطبول ونقرات الدفوف تسمعهم يرددون :

شيخنا سير بنـا لا تونّـي — من سعى بالحرب حنا ذهابـه
يا صليب الراس زبـن المجنّا — من سلايل وايل يلتجى بـه
حنا هل العوجا نسابق دخنـا — فعلنا بـين وكلا درى بـه

وبعد ، تلك هي الدرعية التي تستمد من ماضيها العريق ما يدفعها الى السير بخطى حثيثة على درب التقدم ■

سليمان الضالع

تصوير : علي عبد الله خليفة

الرئيس ابن سينا

بقلم الاستاذ عبد الله عشيمة

— حالة الأمير ، يا خالد ...

— ماذا ؟

— لا تدعو الى الاطمئنان . وطأة الداء تشتد عليه ، ولا يجد أطباؤنا سبيلا لشفائه .

— لا حول ولا قوة الا بالله ..

كان هذا الحديث بين اثنين من أهل بلاط الأمير شمس الدولة الحمداني ، ومنه يستدل على أن الأمير الحمداني هذا يعاني من داء عجز الأطباء عن شفائه منه .

وتابع خالد قائلا :

— هؤلاء الأطباء يا عباس أكاد أفقد ثقتي بهم ، ومن المؤسف أن يعطف شمس الدولة عليهم ، عطفه على سائر أهل العلم ، ولا يحفزهم سخاؤه على توسيع آفاق معرفتهم .

قال عباس :

— أنا معك في هذا .

— ولم لا يستعان بأطباء من الخارج ، فقد يكون الداء الذي يعاني منه الأمير مجهولا لدى أطبائنا ومعروفا عند سواهم .

— الى هذا يتجه التفكير .

— هـــه .

— وفي جرجان طبيب يدعى « ابن سينا » له على ما يقال شهرته الواسعة ، وسيمضي من يأتي به .

— ابن سينا ... سمعت بالطبيب هذا ، فهل تعتقد أنه في مستوى شهرته ؟

— أعماله تشهد له .

— وما أعماله ؟

— مما يقال عنه انه ، في الثامنة عشرة من عمره ، دعي الى معالجة الأمير نوح بن منصور الساماني ، فشفي من داء استعصى عـــلى كبار أطبائه .

— اذا كان هذا ...

— لنا أن نجرب ، وليس لنا أن نشك ، وحالة الأمير كما تعلم .

قال خالد :

— هذا صحيح ... وعسى أن يكون «ابن سينا» عند حسن الظن به ، فاذا أفلح في معالجة شمس الدولة ، كما أفلح في معالجة غيره ، فاني لأرى منذ الآن أي شأن سيكون له في البلاط الحمداني .

• • •

الرئيس ابن سينا ...

هو من اذا ذكر الطب كان رائده ، واذا فاخر العرب فبه وبأمثاله ، ممن ينط لعزتهم ومجدهم ، على صعيد ماضيهم الثقافي والحضاري.

منذ أكثر من ألف سنة مات ،

وما يزال علمه حيا .

وكانت شهرته قد ابتدأت تعم أرض الخلافة ، عندما استدعي لانقاذ الأمير شمس الدولة من دائه . وكان هذا ركن الأسرة الحمدانية ، ومن ذوي العطف الخاص عـــلى العلم وأهلـــه . و « ابن سينا » يعرف ذلك عنه ، ويعرف كرمه .

ومع ذلك فقد كان عليه أن يتحفظ في حسن ظنه ، وهو من عرف الأخطار التي يتعرض لها عشراء ذوي السلطان ، وشر الأخطار تلك ما كان مصدره الحسد ، وأداته الوشايات .

وفي بلاط الأمير المريض ، انصرف الى أداء واجبه كطبيب ، وابتعد عن التدخل في كل ما ليس من اختصاصه وشأنه .

وأحاطه أهل البلاط بالاجلال ، وبكل ما يستحق من الاكرام .

وأشدهم اهتماما لأمره كان حماد ، وزير شمس الدولة الأول ... كان يبالغ في مجاملته وتقديره ، وبعد معاينته الأولى للأمير المريض ، سأله مهتما :

صورة لاحدى القلاع الأثرية الشهيرة في
منطقة الدرعية وقد التقطت قبيل المغيب .

راجع مقال " الدرعية: قلعة الامجاد " تصوير: علي عبدالله خليفة